

قراءة في قصة من الأدب الإسلامي:

قصة «شندويل يبحث عن عروس» لمحمود تيمور

الحادثة:

الحادثة هي الموضوع الذي تدور حوله القصة، وهي مجموعة من الوقائع الجزئية المترابطة، وهذا الترابط هو الذي يميز العمل القصصي عن أي حكاية يروي فيها شخص لصديقه ما وقع له من أحداث، فأحداث القصة الفنية لها إطار عام، يدفعها في تسلسل إلى غاية معينة» (٢).

والحدث الذي تدور حوله القصة هو قضية التبني التي حرمها الإسلام بقوله: «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله» (الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).

فقد كان شندويل يتيم الأبوين، فكفله رجل خير، وضمه إلى أسرته المكونة من زوجته وبناته الثلاث، وبعدما يئس «شندويل» من الزواج من أي من الفتيات الثلاث فكر في الزواج من أمهن، فقالت له: «أنسيت يا شندويل أنني في مقام أمك، وأنت في منزلة ابني؟» ورد «شندويل» قائلاً:

«يفتح الله يا خالة.. هذا كلام لا يعتد به أحد.. وأنا أول من لا يصدق.. لسنا ابناً وأما.. بل نحن رجل وامرأة».

وهو بهذا يرفض فكرة التبني التي سيطرت على فكر الخالة. فقضية التبني هي الموضوع الذي تدور عليه القصة، والوقائع التي تضمنتها القصة - كما سيرد في التحليل التالي - تسهم في إبراز الفكرة بصورة فنية لافتة، دون جلبه أو ضجيج أو ادعاء.

ونجد في التشويق عنصر بارزاً من جماليات هذه القصة حيث يحاول شندويل أن يخطب الفتيات الثلاث واحدة إثر واحدة.

فكر شندويل في أن يتزوج إحدى بنات «أم فكرية» وكانت البنات على نمط متشابه من الوسامة، انتقل إليهن من الأم، فكانهن وإياها نسخ مكررة، إلا فوارق يفرضها السن، وما تتميز به بعضهن من الشمائل والخلال، وقد شاع في المنطقة نبا أولئك الصبايا الملاح، وطار صيتهن في المناطق المجاورة، وتهادت الألسن حديثهن المستطاب... ولكنه كلما فكر في الزواج، وطلب واحدة من البنات قالت «أم فكرية»:

أأجد لابنتي أعز منك؟ أنت ابن البيت.. كلك خير وبركة، ولكن سبقك غيرك يا شندويل؟

وتحكي له حكاية العريس الذي جاء يخطب بنتها: فالأول: مشرف زراعي.. عرض مهراً قدره مئة جنية.. وعنده جنية برتقال يربح منها الذهب.

قصة «شندويل يبحث عن عروس» للأديب الكبير محمود تيمور (١) واحدة من أفضل نماذج القصة المصرية القصيرة.

تتحدث القصة عن «شندويل» الذي فقد أباه وأمه، ثم تبنته أسرة لها ثلاث بنات، وكان للأب والأم بمشابهة الابن، وكان للبنات الثلاث بمشابهة الأخ، وتنتهي القصة بزواج «شندويل» من «أم فكرية» أم البنات الثلاث..



بقلم: د. حسين علي محمد
مصر



والثاني: وكيل الجمعية التعاونية عرض شبكة ثمينة سوارا مرصعا بالذهب.

والثالث: سكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل، وتزوجت البنات الثلاث وتقصت أيام، بل أسابيع وخيم على جو الدار هدوء كثيف، وانتشر صمت قابض، وقل الحديث بين أم فكرية وشنوديل حتى أصبح لا يعدو الضروري من الألفاظ كل منهما يحيا في ملالة وسهوم.

وأخذ شنوديل يفكر:

لقد تزوجت البنات، وكان زواجهن ناجحاً أي نجاح: المشرف الزراعي بمهر مائة جنيه وجنيته برتقال، ووكيل الجمعية التعاونية بسوار مرصع بالجوهر، وسكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل بثلاثاته وغسالاته وأجهزته الإذاعية. شخصيات مرموقة تتضاءل بجانبها شخصية «شنوديل».

وبدأ يفكر في الزواج من أم فكرية، وقد فطن إلى حقيقة مشاعره، وهذا ما قاله لأم فكرية، وهو يخطبها لنفسه: «نشأت وأنا أراك مثل البدر.. بناتك من نورك أخذن نورهن.. وكنت دائماً بدمراً منورا في سماء حياتي طفلاً وصبياً ورجلاً.. في كل مرحلة كنت أحس نحوك شعوراً يلائم سني.. ولكن في كل مراحل حياتي كان هناك إحساس واحد هو الحب.. الحب الغامر الفياض.

الأشخاص:

يشترط سيد قطب في الشخصيات القصصية أن تكون مرسومة بعناية بحيث تتضح ملامحها وسماتها في العمل القصصي، فيقول:

«وكلما وضحت السمات والملامح كاملة من الخارج والداخل كان ذلك أكمل.. وليس المهم هو لون الشخصية وعظمتها، إنما المهم هو طريقة التناول والسير فيه» (٣).

وقد ظهر كثير من الشخصيات في هذه القصة، مثل: شنوديل، وأم فكرية وزوجها، وبناتها الثلاث، والمشرف الزراعي، ووكيل الجمعية التعاونية، وسكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل.

والشخص الرئيسة في هذه القصة شخصيتان، هما شنوديل وأم فكرية..:

شنوديل: شخصية نامية متطورة، عرفنا الكاتب عليه طفلاً يتيماً فصيباً فرجلاً.

وأم فكرية: امرأة عاقلة، تجلست لموت زوجها، وربت بناتها على الفضيلة، وقامت على تربيتهن ورعايتهن خير قيام حتى تزوجن جميعاً، وتزوجت من شنوديل في نهاية القصة. والشخص الثانوي في هذه القصة هي: رب الأسرة، والبنات الثلاث، والأزواج الثلاثة لهن.

رب الأسرة: هو رجل كبير مات بمرض خطير، وقد كفل «شنوديل» اليتيم في بيته بعد وفاة أبويه.

البنات الثلاث: كن على نمط متشابه من الوسامة، انتقل إليهن من الأم، فشاخ في المنطقة صيتهن، وتهادت الألسن حديثهن المستطاب.

الأزواج الثلاثة لبنات «أم فكرية» المشرف الزراعي (زوج الكبرى)، وكيل الجمعية التعاونية (زوج الوسطى)، سكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل (زوج الصغرى).

وشخصية «شنوديل» هي الشخصية الأساس في القصة، وهي الشخصية التي تدور حولها أحداث القصة، وهي شخصية نامية متطورة تبعاً للأحداث التي مرت في القصة، وإذا كان لكل إنسان صورة معروفة، نسم الشخصية بها، فصورة «شنوديل» كما عرفنا عليه المؤلف في ملامحها الاجتماعية والنفسية يمكن تلخيصها في أنه «رجل طيب، صريح نشأ يتيماً» في بيت «أم فكرية» ولما كبر واشتد عوده انتهى إليه عبء الحقل أجمع، فنهض به راضياً بعمله، مرضياً عنه».

عاش في البيت مع «أم فكرية» أختاً لبناتها، وهو صاحب الجد والقوة والعمل في الحقل وهو ذو الشخصية الإسلامية المثالية وقد أحسن الكاتب رسمها.

ولنتوقف أمام مشهد رسمه الكاتب جيداً عن نقطة التحول في حياة «شنوديل» وهي إحساسه بالضيق بعد زواج البنات، وعزمه على الرحيل عن البيت الذي تربى فيه.

ماذا بقي لشنوديل؟ لقد تزوجت البنات، ولم يظفر بواحدة منهن.

فليذهب إلى «أم فكرية» ليخبرها بعزمه على الرحيل لكن هل يستطيع الرحيل حقاً؟

إن «أم فكرية» تجسد له «أصلاً» للجمال، كانت بناتها «صورة» مكرورة منه! وكأنه لم يتنبه لذلك إلا هذه اللحظة!

لقد تحول «شنوديل» الطفل إلى «شنوديل» الرجل، وما هو بعرض الزواج على «أم فكرية» التي كانت تعد نفسها خالة - بل أما - له، فقد كفلته منذ كان صغيراً.

وتتعلم بالفارق السني بينها وبينه.

لكنها توافق أخيراً على الزواج منه.

وهذا ما يقدمه الجزء الأخير من القصة.

«حان له أن يغضب، وحق له أن ينتصف لنفسه، وإن له كرامة عليه أن يحافظ عليها ما وسعه أن يحافظ!».

كان الصباح صفياً رخياً فتقدم «شنوديل» من «أم فكرية» وهي في جلسة مريحة أمام طست الغسيل، فما رآته قادماً حتى للامت أوصالها، وأسدلّت ثوبها تغطي ما تعرى من جسدها، ونظرت إلى الشاب تخاطبه:

- خير يا شنوديل!

- فأجابها في صوت مجلجل:

- قد عزمتم على الرحيل.

فوضعت المرأة يدها على صدرها، وقالت في دهشة:

- أي رحيل تقصد يا «شنوديل»؟

- سأرحل يا ستي.. أرض الله واسعة.. بلاد الله لخلق الله..

- كيف تفكر في أن تتركنا؟

- على الرغم مني أفعل.

فصمت لحظات وهي تتفحصه قراعتها تجهمة وصلابة ملامحه، وما في صوته الرجولي الأجش من عزم وتصميم.. ثم قال:

- ألم تعد الحياة تروق لك بيننا؟

- لم يعد لي أمل في العيش في هذه الدار.. رحلت عنها الصبايا ولم أظفر بواحدة منهن.

- قسمة ونصيب يا «شنوديل».

- وقسمتي ونصبي أن أرحل يا ست «أم فكرية».

لقد نجح الكاتب في القسم السابق أن يرسم صورة مجسمة لغضب «شندويل» من الست أم فكرية التي زوجت بناتها جميعاً دون أن تزوجه واحدة منهن.

كما نجح في إبراز تنبه «شندويل» إلى أنوثته «أم فكرية» وإبراز جمالها وهي في جلسة مريحة أمام «طست الغسيل» وللممة أوصالها، وإسدال ثوبها تغطي ما تعرى من جسدها، ومسح يديها بطرف رداثها.

كما نجح في إبراز تنبه «أم فكرية» لرجولة الطفل «شندويل» الذي ربت، والذي «تصلبت قامته كجذع شجرة عتيقة وكأنها تتنبه للمرة الأولى لصلابة ملامحه، وصوته الرجولي الأجنش، فهو لم يعد ذلك الطفل اليتيم الصغير الذي آوى إلى بيتها بعد فقده والديه.

وهذا الجزء السابق مع الجزء التالي يشيان بمقدمة التحول، وأن البيت بعد زواج البنات لم يعد يضم إلا رجلاً وامراً - وليست امرأة وطفلاً كما كان الحال من قبل - ويمهد الجزء الثاني للجزء الثالث الذي تتزوج فيه «أم فكرية» من «شندويل».

والشخصية الثانية في القصة هي شخصية «أم فكرية».

.. فمن هي «أم فكرية»؟

إنها أرملة الرجل الذي كفل «شندويل» وكانت أما لثلاث بنات «كان شندويل يكبرهن بأعوام قلائل، فاختلفت بالأسرة، كأنه واحد منها، يعمل معهم في خدمة الدار والحقل والماشية».

ولقد كان زوجها رجل خير، مزارعاً له أرض تقى عليه رزقاً حالاً محدوداً، ضم شندويل إليه بعد وفاة أبويه، ولكن زوج أم فكرية أصابه مرض مفاجئ أودى به «فكانت فاجعة تجلدت لها الزوجة بقدر ما تستطيع، ووقفت حياتها على توفير

أسباب العيش لبناتها الثلاث، مع رعاية مرافق الدار والحقل والماشية يعينها الفتى «شندويل» أحسن العون بما أوتي من قوة بنية، وما طبع عليه من صبر وأدب وما تميز به من جد ونشاط» (٤).

- وهي الشخصية التي تحاورت مع شندويل كثيراً وقاسمته الجانب الأكبر من بناء القصة؛ فقد حاورها أثناء ذهابها إلى الحقل بالطعام له، وسؤالها عن المحصول، ومن خلال ردودها عليه حينما طلب منها خطبة بناتها الثلاث أولاً، ثم خطبتها هي في نهاية القصة.

الزمان والمكان:

«الزمان والمكان في القصة المعرفة بها ضرورية لفهم الواقع والأحداث وسلوك الأشخاص وتقدير القيم التي يمثلونها» (٥). والمكان في هذه القصة هو قرية «المنشية» من أعمال «شبين الكوم» بالمنوفية بمصر، والزمان الخمسينيات أو الستينيات

الميلادية (عرفنا ذلك من رسمه لشخصيات المتزوجين من بنات «أم فكرية»: المشرف الزراعي، والجمعيات التعاونية، ورعاية الأسرة وتنظيم النسل، فكل هذه المفردات مما شاع في الحياة المصرية في هذين العقدين بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م).

وقد أثر المكان في الشخصيات والأحداث، فالقرية العمل فيها الزراعة والفلاحة، ومن ثم عمل شندويل مع الأسرة التي اعتنت به في هذا المجال، وفي القرى: العفة والتحجب والصبر على الشدائد ويتضح هذا في شخصية «أم فكرية»، كما نجد في القرى في ذلك الزمان - العقود الأولى للثورة المصرية - تقدير أصحاب المراكز والوظائف التي تتعلق بالتعامل مع القرويين، مثل رجال الإشراف الزراعي، والجمعيات التعاونية، ورعاية الأسرة وتنظيم النسل، ونجد في هذه البيئة الزمانية والمكانية عدم السرف

والاهتمام بالأكل والمعيشة والنوم، فقد كانوا يأكلون في الحقل في مكان ظليل، ونجد شندويل ينام في مكان مخصص له من حظيرة الحيوانات.

العقدة والحل:

العقدة هي المشكلة التي يريد الكاتب معالجتها في قصته، وهي هنا تكمن في الفكرة التي راودت «شندويل» - وهي فكرة الزواج من «أم فكرية» - وموقف «أم فكرية» من هذه الفكرة، لأنها كانت تعده في مقام ابنها.

ونلاحظ ذلك من قولها له: «أنسيت يا شندويل أنني في مقام أمك، وأنت في منزلة ابنتي؟». تلك هي العقدة، ولكن «شندويل» يرفض تلك الفكرة، ويرد عليها قائلاً:

«يفتح الله يا خالة.. هذا كلام لا يعتد به أحد.. وأنا أول من لا يصدق.. لسننا ابناً وأماً، بل نحن رجل وامراً.

وكأنه يريد أن يبين لها أن شريعة الله لا ترضى أن يجتمع رجل وامراً غريبين تحت سقف بيت واحد إلا على سنته، وأضاف بأنه مسلم موحد لا يرضى أن يقيم في هذه الدار إلا زوجها لها، ورفضاً قضية «التبني».

ويأتي الحل من «شندويل» فيغيرها بالعبارات الرقيقة ويتكلم لها عن الحب وعن جمالها، وأن بناتها أخذن منها جمالهن، لينبهها إلى أنه وهي رجل وامراً، وليساً أما وابنها ويهرع إلى يدها يقبلها، ويتعجل عقد الزواج، ونفسه تسابقه إلى ذلك الأمل الذي يكاد يتحقق في الزواج من «أم فكرية» وكأنه بذلك يرفض عملياً قضية التبني - التي حرّمها الله عز وجل - ويشير القاص إلى الحل في الجزء الأخير من القصة:

وندت من «أم فكرية» شهقة، وهي تردد في صوت لين المكاسر.

- الحب .. الحب ..

ثم قالت هامسة:

*** قدم محمود تيمور
في هذه القصة نموذجاً
طيباً للادب الإسلامي
دون طنطنة أو ادعاء**

*** قصة شندويل
«عاجت قضية التبني
التي حرّمها الإسلام
بصورة فنية لافتة**



إنه شاب
مكتمل
الشباب، بل إنه
بلغ مبلغ
الرجولة، وانصرم
الوقت وشندويل لم
يغير جلسته، يضرب
في متاهة لا يعرف له
منها مخرجاً.. وبغته
ألفى نفسه ينهض،
وعلى وجهه يرسم
عزم وتصميم،
وأخذ سمته إلى
«أم فكرية».

فهذه الفقرة تبين قلق

شندويل - الذي صار رجلاً -

وكيف أنه يريد حسم الأمر الخاص ببقائه واستمراره في المنزل
زوجاً لا أم فكرية، وإلا فالرحيل عن هذا البيت.

(٢)

قدم محمود تيمور في هذه القصة نموذجاً طيباً للأدب
الإسلامي دون طنطنة أو ادعاء: فقد عرض للعواطف الإنسانية
وتحولتها دون أن يسف.

وجعل الشخص الغريب يعيش داخل أسرة مسلمة، فيسعد
بعواطفها، ويعيش عيشة طبيعية ليس فيها نقي للمسلم، وإنما فيها
تكافل وحماية لهذا الصغير «شندويل» الذي فقد أسرته فوجد
أسرة تكفله وتحميه من أن يتشرد، وجعل هذا الطفل يرد للأسرة
التي آوته قضيلاً، فيكفلها ويعولها، ونرى أن أفعاله كانت تنم عن
أنه فرد من أفراد الأسرة، ومن خلال ذلك طرح مفهوم الإسلام
للتبني: فهذه المرأة - مع عنايتها به وشفقتها عليه وعاطفتها
تجاهه - ليست أمّاً له، وهؤلاء البنات - بناتها - لسن أخواته، بل
هن غريبات عنه، ومن ثم يرقن له، ويعجب بهن، ويعرض على
أمهن الزواج منهن، وحينما تفوته فرصة الزواج منهن - الواحدة
بعد الأخرى - يتزوج من أمهن «أم فكرية».

إنها قصة نموذجية للأدب الإسلامي الراقي.

- لقد تقدمت سني يا «شندويل».. أنا كبيرة بالنسبة لك..
- ولكنك في نظري في عمر بناتك..
وصاح بصوت كله إيمان وإخلاص:
- والله في عمر بناتك.. بل أحلى وأجمل.. أنت في نظري
طبق قشمة.. اعتبريني يا خالة خادماً لك.. ومريني تجديني رهن
ما تشائين..

- ما عشت أنا لتكون خادمي يا «شندويل».

وغضت من بصرها وهي تواصل القول:

«أنت رجل البيت.. سيد الدار.. وأنا خادمك «ياشندويل»..
واختلج كيانه بهزة عنيفة، وألفى نفسه يهرع إليها، وينكب على
يدها يلثمها، والدموع تسح من عينيه سحاً».

النهاية:

وقد أشار إلى النهاية بقوله في الفقرة السابقة «واختلج
كيانه بهزة عنيفة، وألفى نفسه يهرع إليها، وينكب على يدها
يلثمها، والدموع تسح من عينيه سحاً». وتفيد أن «شندويل»
سيهرع إلى المأذون ليعقد قرانه على «أم فكرية»، ليحقق سعادته،
ولينقض من خلال هذا الزواج مبدأ التبني.

الأسلوب (السرد والحوار والوصف):

السرد: هو نقل الأحداث والمواقف من صورتها الواقعية أو
المتخيلة إلى صورة لغوية، تجعل القارئ يتخيلها، وكأنه يراها
بالعين، والسرد هنا على الطريقة المباشرة، وهو يجمع فيها بين
الوصف والحوار، وقد قدمنا نماذج للحوار (في فقرة
الشخصيات)، ونحن نقدم هنا نموذجين للوصف:

أ- نموذج يقوم الوصف فيه برسم الشخصية: ومن ذلك قول
القصة عن شندويل: «شندويل» هذا فلاح من قرية «المنشية» وهي
من أعمال «شبين الكوم» رجل في حاله، لا يعرف العيب، ولا يجري
لسانه به، مخلص أمين، طيب القلب، لين العريكة، ولكنه معروف
بصراحته، لا يداري أحداً.. فنجد في هذا الوصف رسماً لشخصية
«شندويل» في تكوينه النفسي وهو «البعد الباطني».

ب - نموذج يقوم الوصف فيه بالتمهيد للحدث: ومن ذلك
الوصف الذي بدأت به القصة: «كان شندويل جالساً القرقصاء،
معتمداً رأسه براحتيه، وقد ملكه تفكير مضطرب حائر، وran
على الدار هدوء ثقيل، يشيع فيه هم وقلق ورتوب، وجب أن
يحسم شندويل الأمر على أي نحو يكون، لم يعد طفلاً ولا صبياً،

الهوامش:

١- محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣م) كاتب
قصصي ولد في القاهرة في أسرة اشتهرت
بالأدب، فوالده أحمد تيمور باشا (١٨٧١ -
١٩٣٠م) الأديب المعروف الذي عرف
باهتماماته الواسعة بالتراث العربي،
وعمته الشاعرة الراحدة عائشة التيمورية
(١٨٤٠ - ١٩٠٣م) صاحبة ديوان «حلية
الطراز»، وشقيقه محمد تيمور (١٨٩٢ -
١٩٢١م) هو صاحب أول قصة قصيرة في
الأدب العربي،
تعلم محمود تيمور بالمدارس المصرية،

ولمرضه سافر للاستشفاء بسويسرا بدأ
كتابة القصة القصيرة عام ١٩١٩م
بالعامية، ثم أخلص للفصحى، فاعاد
بالفصحى كتابة القصص التي كتبها
بالعامية، وأصبح من أعضاء مجمع اللغة
العربية عام ١٩٤٩م.
وآثاره متنوعة منها القصة والمسرحية
والبحث، ومن كتبه المطبوعة: «أبو علي
القنان»، و«قال الراوي»، و«دنيا جديدة»،
و«بنيت الشيطان»، و«نداء المجهول»،
و«صقر قريش»، و«فن القصص»،
و«مشكلات اللغة العربية»،
مات في لوزان بسويسرا، ونقل

جثمانه إلى القاهرة، ودفن بها.

انظر خير الدين الزركلي: الأعلام ١٦٥: ٧،
ووديع فلسطين: محمود تيمور: أرستقراطي
يكتب عن القاع، جريدة «الحياة» (لندن)،
١٩٩٦/٩/٦.

٢- د. عزيزة مريدن: القصة والرواية ص
٢٥، ود. حسين علي محمد: التحرير الأدبي،
٢٦٢.

٣- سيد قطب: النقد الأدبي أصوله
ومناهجه، ط ٤، دار بيروت للطباعة
والنشر، بيروت ١٩٦٦م، ص ٧٨.

٤- السابق، ص ١٤٧.

٥- عمر الدسوقي: دراسات أدبية، ص ٣٧.